صورة الآخر في ثلاثيّة أرض السّواد لعبد الرّحمن منيف

«قراءة لصورة الآخر العثماني والإنجليزي والفرنسي»

علي پورحمدانيان(*)

د. علي أصغر قهرماني مقبل(**)

تاريخ الاستلام ٢٠٢٣/٠٤/١٢

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٠٥/١٢

الملخّص

أثّرت الصّورولوجيا في الأدب العهد الحديث تأثيرًا هائلًا وزادت الرّسالة الإنسانيّة للأدب ثقلًا ووظيفة. تُساعد علم الصّورة ومنها دراسات الآخر على خرق الجدران الضّيقة التي فرضتها القوميّة على الإنسان، فيستطيع أن يقوم بدراسة الآخر بواسطة إعادة النّظر في الأنا وبالعكس، وأن يتوصّل من هذا المنطلق إلى الكثير من المواقف والحقائق التّاريخيّة. يحاول هذا البحث أن يُمعن النّظر في رواية صورة الآخر في ثلاثيّة أرض السّواد لعبد الرّحمن منيف التي تُعدُّ -وفقًا للمنهج المقارن المعتمد على الاتجاه الصورولوجي- من أهمّ أعماله. تناول الكثير من الأدباء والباحثين ثلاثيّة أرض السّواد وتعرّضت هذه الثلاثية لمختلف الدّراسات الأدبيّة وحتّى التاريخيّة. تقدّم هذه الرّواية

(*) طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشهيد بهشتي، إيران (الكاتب المسؤول)
a_purhamdanian@sbu.ac.ir

(**) أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشهيد بهشتي، إيران. ali_ghahramanian@sbu.ac.ir

بلغة أدبيّة لمحةً عن تاريخ العراق خلال حكم داود باشا الّذي عُيّن واليًا من قبل القرمانليين، وتطرّق الرّوائي من خلال هذه الثّلاثيّة إلى أحداث وقضايا مهمّة أثّرت وقد تؤثّر على تاريخ العراق، تسليطُ الضّوء على محاولات الآخر العثمانيّ والإنجليزيّ والفرنسيّ في العراق من أهمّ ميزات هذه الثّلاثيّة وتتجلّى ميزة هذه المقالة في دراسة وتحليل صورة الآخر من جوانب مختلفة ومن النّتائج المهمة التي توصّلت إليها هذه المقالة هي أنّ الرّوائي لم ينحصر بالنّظرة السّياسيّة ونقد الموقف السّياسيّ للآخر فقط، فيُشاهد بأنّ الرّوائي سلّط الضّوء على الجوانب الثّقافيّة منها ظاهرة الاحتفال في الثّقافة الغربيّة والعادات والتّقاليد، وأنّ صورة الآخر العثمانيّ والآخر الإنجليزيّ ظهرت في موضوع واحدٍ من السّلبيّة بالنّسبة إلى الآخر الفرنسيّ بينما ظهرت صورة الآخر الإنجليزيّ بعجائبيّة تفوّقت على الآخر العثمانيّ والفرنسيّ.

المفردات الرّئيسيّة: الأدب المقارن، الصّورولوجيا، دراسة الآخر، عبد الرحمن منيف، ثلاثيّة أرض السّواد.

١. المقدّمة

شهد الإنسان تعاقب العصور والدّهور، وظهرت إثر هذا التّعاقب تطوّرات وتغيرات جديدة خيّمت على شتّى مناحي الفكر وحياة الإنسان ولم يكن الأدب بمنأى عن هذه التغيرات. ظهور المدارس الأدبيّة ومخلّفاتها الفكريّة في الغرب، وفي القرون الأخيرة من التغييرات المهمة التي أتت بمظاهر ونشاطات جديدة في حلبة الأدب ووجهت الأنظار نحو عالميّة الأدب وكسر الحدود والحواجز التي كانت تعرقل الحركة الأدبيّة العالميّة ولا تسمح للأديب أن ينظر إلى مدى أبعد، فيجب أن يُلاحظ القارئ نقطة مهمة جدًّا وهي أنّ الكثير من الإبداعات الأدبيّة التي نادى بها الغرب، قد خُطّت بيمين الأدباء العرب منذ قديم العصور وأشيرَ إليها في الآثار الأدبيّة التي ورثناها عن هؤلاء العلماء الأفذاذ ولا يُنكر الباحث أن الغربيّين دوّنوا هذه الأبواب وخطّوا لها أصولًا وقواعد وأطرًا وجعلوا منها شيئًا حديثًا وقشيب الثّوب وخير دليل على هذا هي الدّراسات

الأدبيّة ذات النّظريّة الجديدة التي تمّ تطبيقها على الأدب العربيّ القديم كدراسة صورة الآخر في آثار الجاحظ أو في رحلة ابن بطّوطة.

أما بالنّسبة إلى علم الصّورة ودراسات الآخر فقيل في حقّها الكثير من التّعاريف والعبارات التي وسّعت هذا الحقل وجعلته كواحة يغرس فيها الأدباء أفكارًا وآراء جديدة وحديثة تُفيد المجتمع وأهل المعرفة ولعلّ توسيع حقل الأدب وفتح أبوابه على العلوم الإنسانيّة والجماليّة من أهمّ الأفكار والأحداث التي نادت بها دراسات الأدب المقارن «إنّ الثّقافة مجال متواشجٌ مع مجالات القوّة والسّياسة والعنصريّة والاضطهاد والاستيلاء وكلّ المجالات والقضايا الّتي درج النّقّاد على تجاوزها في قراءاتهم للأعمال الأدبيّة العظيمة لأسباب مختلفة» (موريس، ٢٠٠٩، ص١٣).

بالنّسبة إلى تعريف علم الصّورة يُمكن القول بأنّ هذا العلم يدرس الأدب وكلّ ما تمتّه صلة بالأدب في ظلّ العلاقات والمواصلات والتّأثير والتأثّر المباشر أو غير المباشر بين الشّعوب وحتّى في بعض الأحيان وفي بعض المدارس الغربيّة لم يكن هناك تواصلٌ وتأثّر بين شعبَين أو قومَين فمن خلال علم الصّورة ودراسات الآخر يتوصّل الباحث إلى معطيات أدبيّة تاريخيّة تفتح أنظاره على العلاقة الواقعيّة بين ثقافة الشّعوب ومنطلقاتها السّياسيّة والاجتماعيّة ويعتقد الباحث بأن الآثار الأدبيّة وخاصّة الآثار التي جمعت بين التّاريخ والأدب تُساعد القارئ على تلقّي الواقع المُعاش من قبل تلك الشّعوب، ولعلّ السّبب الكامن في هذا الأمر هو أنّ الأدب حاول أن يعبّر طيلة العصور عن مكنونات نفس الإنسان وهواياته وهواجسه وكلّ الأحداث التّي عايشها ومن حيث أنّ العاطفة من أهمّ المصادر التي تُساعد على تكوين الأدب والأعمال الأدبيّة، فيكون لها فضل السبق في تخطّي التحدّيات التي واجهها المؤرّخون في نقل الحقائق التاريخيّة كالتحزّبات الشّخصيّة والانتماءات السّياسيّة والحقّ أنّ علم الصّورة أو الصّورولوجيا كحقل مهمّ جدًّا وموسّع وكقسم من دراسات الأدب المقارن ظهر كي يعبّر عن رسالة إنسانيّة عظمى حيث «يمكن البحث عن تأثّر مباشر وغيرمباشر بين الأدباء كتأثّرهم بينابيع وجذور فكريّة وثقافيّة واحدة أو متشابهة، أو بالأدباء

والمفكّرين أنفسهم. عندئذ يُفسّر المتماثل المشترك الفكريّ والثقافيّ العالميّ الإنسانيّ وفي إطار عالميّة التراث الأدبي» (بزّون، ٢٠٢١، ٨١). وبدراسة الصّورة في الآثار الأدبيّة وبشكل خاص الآثار التي ألّفت في مجال السّرد أي الرّواية منها، تعمّقت الأبصار في سلوكيّات الشّعوب وموقفها من الآخر «ولا يخفى أنّ للصّور الأدبيّة للشّعوب تأثيرًا عميقًا في علاقاتها بعضها ببعض، أيًّا كان نوع تلك العلاقات ولها كذلك تأثير على عقول قادة الأمّة من السّاسة والمفكّرين في تكوين رأي عامّ قد ينتج عنه اتّجاه خاصّ في علاقاتها مع غيرها» (هلال، ٢٠٠٨، ص٣٣)، وكما لمّحنا إلى أهميّة دراسة الرّواية من منظور علم الصّورة يُلاحظ أنّ الرّواية الجديدة فتحت الكثير من الآفاق الفكريّة والعالميّة الهادفة للمتلقّي.

عبد الرحمن منيف هو من أشهر روائيي السّعودية الذي اهتمّ بقضيّة التّراث والثّقافة وتوجيه الأنظار نحو الآخر المستعمر اهتمامًا خاصًّا، ومن حيث أنّ العالم الرّوائي لهذا الأديب متجذّرٌ في تاريخ وثقافة الشّعوب العربيّة التي كتب عنها، فأصبحت رواياته معينًا يقصده متتبّعو الأدب والتّاريخ. تعدّ ثلاثيّة أرض السّواد من أهمّ مؤلّفات عبد الرحمن منيف التي تعرّضت للكثير من الدّراسات والقراءات نظرًا لأهميّتها ودورها في العالم الرّوائيّ العربيّ. صوّر عبد الرحمن منيف بلغته الأدبيّة المنقطعة النّظير واقعَ الشّعب العراقيّ أيّام حكم العثمانيّين وبالتّحديد داود باشا، فهي حكاية المأساة، الفيضانات، مظاهر الاستعمار والاحتلال، الهويّة المتأزّمة والسّياسات الاستعماريّة التي نادت بها الجهات الغربيّة والشّرقيّة.

تحاول هذه المقالة أن يدرس صورة الآخر في رواية أرض السّواد وفقًا للمنهج المقارن المعتمد على الاتجاه الصورولوجي. من الملاحظات الأخرى التي يجب أن يُشار إليها في المقدّمة هي أنّ رواية أرض السّواد احتضنت الكثير من العبارات والمفردات والأمثال والمصطلحات العراقيّة والكثير من الحوارات التي تدور بين الشّخصيّات الرّوائيّة جاءت باللهجة العراقيّة، ولذلك تمّ تبديل الشّواهد التي جاءت باللهجة العراقيّة إلى العربيّة الفصحى في نهاية المقالة.

أسئلة البحث

يحاول هذا البحث أن يردّ على الأسئلة التّالية:

١. ما هي الصّفات التي تميّز عبد الرحمن منيف بها في تناوله الآخر؟
٢. كيف ظهرت صورة الآخر العثمانيّ والإنجليزيّ والفرنسيّ؟
٣. ما هي نقاط التّشابه والاختلاف التي ظهرت في معالجة الرّوائي للآخر (الإنجليزيّ والفرنسيّ والعثمانيّ)؟

٢. سابقة البحث

لعلّ كتاب «العلامة والرّواية، دراسة سيميائيّة في ثلاثيّة أرض السّواد لعبد الرحمن منيف» من تأليف الباحث فيصل غازي النّعيمي من أهمّ المصادر التي دُوّنت حول رواية أرض السّواد بحيث أصبح هذا الكتاب من المصادر المهمّة للباحثين حول موضوع العلامة، بعد أن تحدّث الكاتب عن المفاهيم النّظريّة عن العلامة، انتقل إلى البحث عن العلامة ودلالاتها فخصّص فصولًا تحكي عن العلامة الزّمنيّة، العلامة المكانيّة، الشّخصيّات والعلامة والعلامة الثّقافية. من النتائج المهمّة التي توصّل إليها هذا الكتاب هي أنّ العلامة الرّوائيّة ليست رهينة بالملفوظ السّردي فحسب، بل بالعلاقات القائمة بين هذه التقنيّات الشّكليّة والمضامين التي حملها النّص الرّوائي، لذلك جاءت هذه العلامة حاملة معها روح المفارقة التي تتّسم بها الرواية. طُبع هذا الكتاب لأوّل مرّة في العام ٢٠٠٩، دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع في عمّان.

تعرّضت ثلاثيّة أرض السّواد للكثير من الدّراسات الأدبيّة المختلفة ومن الدّراسات المهمة والشّاملة التي دونت حول الرّؤية التاريخيّة فيها يمكن أن يُشار إلى أطروحة قُدّمت لنيل درجة الدّكتوراه من قبل الباحثة زينب الحراري عبد النّبي تحمل عنوان «الرواية التاريخيّة/ روايتا أرض السّواد لعبد الرحمن منيف والأرامل والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى نموذجًا». تحدّثت الباحثة في هذه الأطروحة عن موضوعات عدّة قد تكون أهمّها الحدث في الرّوايتين التّاريخيّتين واللغة في الروايتَين، ومن النّتائج

التي توصّلت إليها هذه الأطروحة هي أنّ اللغة التاريخيّة في الرّوايتين قد غيّرت اللغة الرّوائيّة في الرواية التقليديّة غير التاريخيّة، فجاءت على الإجمال متّسمة بسمات واحدة ولكنّها تتفاوت بين الكاتبين في السّرد والحوار، فرضتها طبيعة الموضوع لذا جاءت هذه اللغة مغايرة، لغة فخمة رنّانة؛ سلسة عظيمة. نوقشت هذه الرّسالة عام ٢٠١٥ بجامعة طرابلس في ليبيا، قسم اللغة العربيّة.

«إشكاليّة الهويّة بين الأنا والآخر في رواية أرض السّواد لعبد الرحمن منيف» من المقالات المهمّة التي لا بدّ أن يُشار إليها، طُبعت هذه المقالة في العام ٢٠١٢ في مجلّة الموقف الأدبي. سلّطت الباحثةُ ماجدة حمّود الضّوءَ على الأنا ودلالة العنوان، الأنا الشّعبيّة، خصوصيّة الأنا، الآخر والاستعلاء، تنوّع النّظرة للفضاء العراقيّ والتناص الشّعبيّ، قامت الباحثة بتحليل كلّ من الموضوعات المذكورة تحليلًا وافيًا بحيث ذكرت الكثير من النّتائج التي توصّلت إليها في الفقرات المتعلّقة بالموضوعات منها أنّ هناك رغبة لاوعيّة لدى الرّوائي، في بسط هيمنة الأنا على الآخر ولو من طريق الهيمنة اللغويّة، فاستخدام الأمثال والمصطلحات الشّعبيّة هي تعبّر عن روح المجتمع واستخدام هذه الأمثال والمصطلحات من قبل الشّخصيّات الرّوائيّة يعني أن المحتلّ فشل في استعمار الشّخصيّة وهذا الاستعمار أصعب بكثر من استعمار الأرض.

«مواجهة الاستشراقيّة والاستعماريّة في رواية أرض السّواد لعبد الرحمن منيف» من المقالات التي تكون أقرب إلى هذا البحث. قام الباحثون في هذه المقالة بدراسة وتحليل التنميط والصّورة الشّرقيّة عن الشّرق، تحليل قضيّة المركز والهامش، قضيّة التابع، توظيف الثّقافة المحليّة و...، ومن النّتائج التي توصّلت إليها هذه الدّراسة هي أنّ تيار الاستشراق كالاستعمار، في رأي منيف يشمل جميع مناحي حياة الشّرقيين، فيجب اتّخاذ المواجهة التّقابليّة لذلك بذكاء وأن الرّوائي سعى لاستخدام الضّرورات اللغويّة إضافة إلى السّياق الدّلالي في سبيل تحسين التّصوير التّقابلي لتيّار الاستشراقيّة الاستعماريّة، طُبعت هذه المقالة بجهود فاطمة برجكاني وآخرين، في العام ٢٠١٧، في مجلّة دراسات في اللغة العربيّة وآدابها، السنة الثامنة، العدد الخامس والعشرون، ص ٧٦-٥٣.

أمّا هذا البحث فهو محاولة لتبيين صورة الآخر في ثلاثيّة أرض السّواد لعبد الرّحمن منيف، والآخر في هذه المقالة هو العثمانيّ والإنجليزيّ والفرنسيّ، وقد تمّت دراسة الآخر من مناظير مختلفة قد تكون السّياسيّة والثّقافيّة أهمّها.

٣. علم الصّورة

علم الصّورة من أهمّ فروع الأدب الذي نشأ وترعرع في أحضان المدرسة الفرنسيّة «حيث قامت الأديبة الفرنسيّة مادام دي ستايل بزيارة إلى ألمانيا في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشّعبين الفرنسيّ والألمانيّ وانتبهت بأنّ مجرّد الجوار الجغرافيّ لا يجدي خيرًا على الشّعبين وراح أدب الشّعبين يقوم بخلق صور عدائيّة ومغرضة للترويح عن الحقد والتناحر بينهما» (ينظر: صالح، ٢٠١٤، ص٤). تعدّ دراسات علم الصّورولوجيا من أهم دراسات حقل الأدب المقارن بحيث يعدّ هذا الفرع «أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من نحو ثلاثين عامًا، ولكنّه غني بالبحوث التي تبشّر بأنّه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رواجًا في المستقبل» (هلال، ٢٠٠٨، ٣٣).

بإمكان الدّراسات الأدبيّة التي ألّفت في علم الصّورة ولا سيّما الدّراسات التي تكشف عن الصّور التي تتعرّض لدراسة موسّعة وخاصّة من هذا المنظور في الأدب العربيّ القديم أن تدلّ القارئ على الكثير من المعلومات التاريخيّة المهمة سواء على الصّعيد الثّقافي أو السّياسي والاجتماعي المتعلّقة بالشّعوب الأخرى أمّا بالنّسبة إلى الآثار الأدبيّة التي ألّفت في العهد الحديث فيكون علم الصّورة وتجلّياته ذا إيحاءات أكثر حداثة وأكثر ملائمة مع الظّروف الرّاهنة و«الهدف الرّئيس لعلم الصّورة هو مقابلة الصّور الأدبيّة مع الصّور المماثلة في التمثيل الحديث الذي يُشاهد في وسائط الإعلام والقصص العامّة والفنون ويتمّ ذلك وفقًا للرّؤية الخاصّة بالنّسبة إلى الأرضيّة الاجتماعيّة-التاريخيّة» (نانكت، ١٣٩٠، ص١٠٦) من الميّزات المهمة لعلم الصّورة التي يُمكن أن يُشار إليها هي ترابطها مع العلوم الإنسانيّة ولعلّ هذا الارتباط قد ظهر

في الصّورولوجيا أكثر بكثير من حقول الأدب الأخرى بحيث يعرّف علم الصّورة بأنّه «ظهر في الأدب المقارن لدراسة تكوين الصّور عن شعب لدى شعب آخر، وتعتمد الصّورولوجيا على مفاهيم الدّرس السيكولوجيّ والسوسيولوجيّ والأنثولوجيّ لتكون في نهاية المطاف عبارة عن تداخل العلوم الإنسانيّة بالأدبيّة» (علّوش، ١٩٨٥، ص١٣٧) فقراءة النّص الأدبيّ والصّور التي تقدّمها «الأنا» بالنّسبة إلى «الآخر» تحتاج إلى تحليل دقيقٍ وواف يتخلّل دواخل النّص الأدبيّ والخلفيّات التي أدّت إلى بلورة هذا النّص «لأنّ الصّورولوجيا هي مجموعة من الأفكار التي تقدّمها الذّات عن الآخر ضمن سيرورة من التّأديب» (صالح، ٢٠١٤، ص٧).

تعرّضت الصّورولوجيا شأن الكثير من المصطلحات المعاصرة والحديثة لتعاريف جدليّة واستخدمت الصورولوجيا لأغراض تبعد عن النّظرة المنطقيّة الإنسانيّة بعض الأحيان لكن ما يعتقد به الباحثان تمامًا هو أنّ دراسات علم الصّورة تبيّن للقارئ مدى اختلاف الشّعوب وتوافقهم على الكثير من الظّواهر الموجودة، الظّواهر التي لعلّها تكون أوضح في الحقل السّياسيّ والثّقافيّ.

وكذلك يمكن أن تكون دراسات الآخر ذات دلالات وأغراض تُدرس في ظلّ الأدب الملتزم لأنّ هذه الدّرسات تنبّه القارئ بالنّسبة إلى الأحداث والأفكار غير الإنسانية التي تتبنّاها بعض الشّعوب بالنسبة إلى الشّعوب والقوميّات الأخرى وعندئذ يكون الأدب المقارن في صدد كسر هذه الحواجز ومن الأغراض الأخرى للأدب المقارن التي تُدرس الصّورة في ظلّه هي التقريب بين الشّعوب والأمم وترسيخ رسالة السّلام والتّعايش السّلمي بين الشّعوب والمجتمعات البشريّة.

٤. التعريف بالأنا والآخر

يقول ابن منظور في لسان العرب بأنّ الأنا: «اسمٌ مكنّى وهو للمتكلّم وحده، وإنّما يُبنى على الفتح فرقًا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل، والألف الأخيرة إنّما لبيان الحركة في الوقف» (ابن منظور، ١١١٩، ص١٦٠) وأمّا بالنّسبة إلى معنى الأنا

في المصطلح لدى النقّاد القدماء، فقال ابن سينا بأنّ «المراد بالنّفس ما يشير إليه كلّ أحد بقوله أنا» (ابن سينا، ٢٠١٧، ص٩)، أمّا فيما يتعلّق بمفهوم الأنا الحديث أو الذي نادت به المدارس الغربيّة للتحليل والنّقد الأدبي، فيعدّ فرويد أوّل من تعرّض لدراسة الأنا في مدرسة التحليل النّفسي.

مفهوم الأنا من المفاهيم الأكثر تعقيدًا حيث ظهرت حول هذا المفهوم تعاريف عديدة ومختلفة عن البعض سواء في علم الفلسفة أو الاجتماع أو علم النّفس أو الحقول المعرفيّة الأخرى من العلوم الإنسانيّة لكن لم تكن التّعاريف المقدّمة تختلف كثيرًا عن الأخرى لدرجة يمسّ هذا الخلاف بجوهرة المصطلح.

يقصد بمصطلح الأنا في مدرسة التحليل النّفسي «المكوّن من الشّخصيّة الذي يتعامل مع العالم الخارجيّ ومطالبه العمليّة، وبتحديد أكثر، فإنّ الأنا هو الذي يمكننا من أن نُدرك، وأن نفكر وأن نحلّ المشكلات وأن نختبر الواقع» (جابر، كفّاني، ١٩٨٨، ص١٠٨٤) والحقيقة ليس المراد من الأنا التي تُدرس في الأدب المقارن المعنى الفلسفيّ أو الاجتماعي أو النّفسي البحت بل يُمكن أن نقول بأنّ الأنا تكون ذات أطراف دلالات أوسع وأعمق فالأنا لم تكن تتعلّق بشخصٍ واحد ولم تكن محدّدة بذاتها أي فهي تكون أنا حين يكون هناك آخر يُقابلها أو يُضارعها و«تُعدّ الأنا في الأدب ذات الأديب ومشاعره وأفكاره تجاه كلّ ما هو خارجٌ عنها ويحيط بها سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا أي هي تمثّل حلقة الوصل بين ذات الفرد والعالم الخارجي، ولا يُمكن للأنا أن تظهر إلّا من خلال الآخر، وذلك لأنّ العلاقة بينهما متلازمة ومستمرّة والأنا في الأصل جزءٌ من الآخر ولكن ما يُبرز الأنا ويحدّد هويّتها هو أفكارها ونظرتها وفلسفتها ورأيها المتميّز» (عباسعلي نژاد، ٢٠١٩، ص٨).

أمّا بالنّسبة إلى الآخر فهو ما يعرّفه ابن منظور بأنّه «اسمٌ على أفعل والأنثى أخرى إلّا أنّ فيه معنى الصّفة لأنّ أفعل من كذا لا يكون إلّا في صفة» (ابن منظور، ١١١٩، ص٣٩). وكذلك عبّرت الكثير من المعاجم بأنّ الآخر هو ما يعادل الغير وأمّا الآخر في المصطلح الفلسفيّ «إلّا أنّ بعض الفلاسفة يأخذون كلمة آخر بمعنى صفة كلّ ما هو

غير أنا. سواء في ذلك الأشخاص الآخرون أو الأشياء الأخرى وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا هي مقولة ابستمولوجيّة، ملخّصها الإقرار بوجود موجودات خارج الذّات العارفة أي كينونات موضوعيّة» (المهداوي، ٢٠١٠، ص٢٠).

والحقّ أنّ التعريف المقدّم حول الآخر في الفلسفة أو العلوم الأخرى لم يغفل عن الأنا فيستعيدها ويستند بها لتوضيح الفكرة عند القارئ وصورة الآخر «فهي عبارة عن مركب من السّمات الاجتماعيّة والنّفسيّة والفكريّة والسّلوكيّة التي يُنسبها فردٌ ما أو جماعة إلى الآخرين الذين هم خارجها» (ياسين، ٢٠٠٦، ص٦). وليس المراد من الآخر هو الاختلاف بين السّلوكيّات والأفكار والانتماءات فقط أي لاتهدف دراسات الأنا والآخر أن تضع الحواجز بين النّاس «بل يُمكن أن تكون الذّات مخالفة لشخصيّة الفرد نفسها ومنشطرة على نفسها ويجادلها، حيث يستطيع المرء أن يكتشفها ويتعرّف عليها من خلال هذه المجادلة» (عباسعلي نژاد، ٢٠١٩، ص٩).

لم يكن مصطلح الآخر بمعزل عن الأنا في الجدليّة واختلاف المعاني لكن ما يجب أن يُلاحظ تمامًا هو أنّ المصطلحين يكملان بعضهما البعض في كافة التعاريف منها الفلسفيّة والإجتماعيّة والأدبيّة فالعلاقة بين الأنا والآخر علاقة وثيقة ومتماسكة يحتاج فيها كلّ من الجانبين إلى الآخر لتكملة مفهومه ومعناه.

٥. ملخّص رواية أرض السّواد

يُعَدّ عبد الرّحمن منيف أشهر روائيّي المملكة العربيّة السّعوديّة ولا يخفى على القارئ ما أنتجه هذا الرّوائي الشّهير في السّاحة الأدبيّة وفي مجال الرّواية. ثلاثية أرض السّواد لعبد الرحمن منيف تطرّقت إلى تاريخ العراق الاجتماعيّ والسياسيّ خلال القرن التاسع عشر وركّزت بالأساس على تفاعلات الشخصيّة العراقيّة مع الأحداث العالميّة الكبرى آنذاك كهزيمة نابليون في مصر وبقايا فكر الثورة الفرنسيّة في العالم والأطماع الإنجليزيّة في الشرق وظلال السلطة في عاصمة الخلافة. لقد استطاعت رواية أرض السّواد أن تمثّل تلك الملاحم البرجوازيّة التي سبّبت الكثير من الأزمات والمشاكل

و«عبد الرحمن منيف في تعامله مع التاريخ في أرض السّواد لم يتناول التاريخ بصورته المجردّة بوصفه سجلًّا سياسيًّا واقتصاديًّا وتاريخيًّا لانتصارات الحكم والبلاط والولاة، إنّما يتجاوز ذلك لتجسيد ملامح العراك والمعالم الأنثروبولوجيا المكوّنة للقاع الاجتماعي بكلّ ما تنطوي عليه من ثراء وتناقض وتوحّش ورقة» (الهادي، ٢٠١٧، ص٢١).

وأبرز ما يميز هذه الرواية أنها آخر ما كتب عبد الرحمن منيف (١٩٩٧-١٩٩٩) واعتبرها البعض محاولة للرجوع إلى منابع الطفولة خاصة أنه أهدى هذا العمل إلى أمه نورة العراقية التي أرضعته حب العراق كما قال وقد استعمل في الحوار اللهجة البغدادية بكل تفاصيلها اليومية وبث في أرجاء الرواية النظرة العراقية للأشياء سواء على مستوى الحاكم أو على مستوى العامة ولذلك استطاع عبد الرحمن منيف أن يمثّل الشخصيّة العراقيّة بحيث إن قرأ قارئ بعض نصوص الرّواية التي كُتبت باللهجة العراقيّة دون أن يعلم أنّها من تأليف منيف لقال أنّها من تأليف أشهر روائيي العراق «فشكل عبد الرحمن منيف من محتوى ذهن الشّخصيّة، والواقع المحيط بها، بنية روائيّة لا تنضب، مفيدًا من عدم محدوديّة الذّهن وتجدّده المستمر. فبنى أزمنة وأمكنة وأحداثًا من محيط ذكريات الشّخصيّة الذي يبدأ من يوم ولادتها مرورًا بما اختزنته من تجارب حضاريّة وإنسانيّة أذابتها في بوتقة تجربتها الخاصّة» (المحادين، ٢٠٠٦، ص٩١).

وقد حاول منيف أن يقول إنّ تاريخ العراق تنطبق عليه قاعدة التاريخ يعيد نفسه. رواية ثلاثيّة أرض السّواد هي الرّواية التي تحكي عن الظّروف الاجتماعيّة والثّقافيّة والسّياسيّة التي شهدها العراق في زمن حكم الأتراك، سليمان باشا وداود باشا. الرّواية واقعيّة وهي حديث حول القضايا التي شهدها العراق فأمّا الرّواي للرّواية فهو الرّواي العليم ويبدأ عبد الرّحمن منيف بذكر أخبار تاريخيّة عن العراق في عهد داود باشا ومن ثمّ يُعرّف القارئ على شخصيّات روائية تنقسم إلى قسمين قسم ينتمي إلى الطّبقة الحاكمة كـ «داود باشا»، «الآغا عليوي»، «مستر ريتش وزوجته ماري» و«بدري» وأمّا القسم الآخر من الشّخصيّات فهي الشخصيّات العامّة التي عاشت الواقع الرّديء

والظّروف الصّعبة الناتجة عن تغيير الحكم ودور السّلطات الأجنبيّة في إدارة العراق، ومن هذه الشّخصيّات يمكن أن نشير إلى «الحاج شبلي»، «الملا حمّادي»، «حسّون» و«سيفو».

٤-١. إشكاليّة الأنا وقبول الآخر العثمانيّ

تأثّر العراق بالتغيرات السّياسيّة التي طرأت في زمن العثمانيّين شأن البلدان الأخرى ورسّخت الحكومة العثمانيّة دعائمها في العراق والدّول المجاورة كـ «سوريا» و«المملكة السّعوديّة» و«مصر» و.. . ونقلُ الحكم من أسرة إلى أسرة أخرى يستلزم أحكام وضرورات وقضايا لا ضير منها، وهذا فيما يتعلّق بالتغييرات التي تحدث في داخل المملكة، أمّا حينما يحدث التغيير في الخارج أو يكون متأثّرًا بباعث أجنبي ويواجه الإنسان «الآخر» في العنصر أو في الدّيانة أو في المبادئ عربيًّا كان أو فارسيًا أو من أيّ قوميّة أخرى... فعندئذ يكون التغيير الطّارئ ذا جوانب أوسع ونطاق ربّما يختلف تمامًا بالنّسبة للـ «أنا». كما يتّضح من قراءة رواية أرض السّواد، أنّ العراقيَّ واجهَ محنًا وآلامًا وويلات مفجعة وكثيرة، ووفقًا لما ذُكر في الرّواية استاء الشّعب العراقي وخاصّة العوام من النّاس من التغييرات التي وقعت في الحكم العثماني وخاصّة الاختلاف بين الأسرة الحاكمة الذي وجّه ضروب الأسى والظّلم إلى النّاس، بحيث كان النّاس يدعون أن تتمّ حملات الكرّ والفرّ وأن تنتهي الحالة التي ضيّعت عليهم الأمر وكانوا يتمنّون أن يستقرّ الأمر وترجع المياه إلى مجاريها ولو بشكل مؤقّت:

«وقد بدا الجميع في حالة من الرّضى وتبادل الكثيرون التّعليقات والأخبار، وحتّى بعض النّكات، كما تذكروا الأيّام الصّعبة التي مرّت بهم، وشكروا الله أنّ كلّ شيء انتهى بوصول داود باشا، وأكدوا لأنفسهم ولبعضهم أن أيّام العزّ والرّخاء قد أقبلت» (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٣١).

لم يصرّح الرّوائي في الثّلاثيّة عن الظّلم الموجّه من قبل الآخر العثمانيّ فلم نر خطابًا من قبل الشّخصيّات الرّئيسيّة يحكي عن العثماني أو الحاكم الموجّه من قبل الدّولة

العثمانيّة ولعلّ هذا الأمر يحكي عن تحكيم سيطرة الآخر العثمانيّ على الشّعب العراقيّ بحيث لم يكن الشّعب يثق من خروج ناجٍ يكفّ هذا الظّلم والمأساة وهذه إشارة إلى ترسيخ قواعد الاستعمار في أفكار أبناء هذه الجلدة فهم يدعون لوصول أيّام العزّ والرّخاء فقط ويرفعون أيديهم للدّعاء بقصد إتمام هذه الأزمات حيث «يستسلم العراقيّ إلى ظلم الولاة والغرباء، فيسهم في ظلم نفسه، ويضيّع كرامته ويمسخ وجموده» (حمّود، ٢٠١٢، ص٣٠). وكما يظهر في الشّاهد، تلوًا لحكم داود باشا واستلامه لزمام الأمور كان الشّعب ينتظر عواقب حسنة وكان يظنّ «العراقيّ» بأنّه يواجه الرّاحة والأمان في المجتمع. أمّا في الحقيقة لم يعدّ العثمانيّون وداود باشا وأتباعه من أبناء هذه الجلدة، فهم لم يحسّوا بآلام هذا الشّعب وما عانى منه وبقراءة بسيطة للنّص نصل إلى التعايش القهري لـ «العراقيّ» مع الأتراك، فكان العراقيّ ينظر إلى هذه الأسرة كأسرة حاكمة مشروعة وحتّى في التغيرات التي طرأت في الحكم:

«أرواحنا وصلت للزردوم، حاج شبلي، من المخانيث، لأنّهم ما خلّوا لنا درب أو سكّة، سدّوها بوجوهنا، وما بقى إلّا يجي داود، والّا انلاصت علينا!»[1] (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٩٠)

يحكي الشّاهد عن فساد «سعيد باشا» ووزيره «حمّادي» اللذين لم يحرّكا أي ساكن في قرار البلاد وتهيئة أسباب الرّاحة والهدوء للنّاس فإنّهما «سدّا جميع الطّرق في وجه الشّعب» ولذلك تعتقد الشخصيّة الرّوائية إن لم يحدث تغييرًا في الحكم فتكون الظّروف أسوأ وأمر ووصف الحكام العثمانيّين بالمخانيث هو إشارة إلى الفساد الأخلاقيّ الذي شاع بينهم آنذاك فهم لم يدَعوا طريقًا لرفاه النّاس وحصولهم على قسطٍ من الرّاحة. عدم الرّضا من الحكم العثماني وسيطرة الآغوات التي ظهرت في الحوارات من الرّكائز المهمة التي يمكن أن يُشار إليها:

«ها شتقول أبو مولود، منو راح ينتصر ومنو راح ينهزم.. هذا الباشا أو ذاك؟ وآني

(١) «سئمنا هذا الوضع يا حاج شبلي وكأنّنا نتعايش لحظة الاحتضار من هؤلاء المخانيث، لم يدعوا لنا طريقًا إلاّ وقطعوه علينا، لا يوجد حلٌّ آخر إلّا أن يأتي داود باشا وإلّا خسرنا كلّ شيء»

أقول له: طوّل بالك مختارنا! إلزم القاع ولا تخبصنا يا أبو سندس، لأن كل واحد منهم أنجس من اللاخ، وكل شي ما راح يتغيّر..»[1] (المصدر نفسه، ص ٥٦).

لم يكن الشّعب راضيًا عن الحكم بحيث صوّرت إحدى الشّخصيّات الحكام بأنّهم واحدٌ أنجس من الآخر.. أي أنّهم غير عابئين بالمأساة التي عايشها الشعب والدّمار الذي حلّ بالبلاد.. وهم ليسوا إلّا على سياسات وأفكار واحدة.. فمن أين يأتي التغيير.. لأنّ الحاكم لا يحمل شعورًا وعرقًا وعصبيّة تجاه هذه الأرض وشعبها فعندئذ لم تكن المحاولات إلّا حبرًا على الأوراق. وتعتقد «الشّخصيّة العراقيّة» بأنّ دسّ التّفرقة بين النّاس وجعلَهم في فئتين رئيسيّتين من الأعمال التي قام بها الآخر العثمانيّ وسياسة تكميم الأفواه من أهمّ العوامل التي ساعدت على ترويج هذا الأمر:

«سالفتنا ببغداد، بالصّوبين، طويلة، وإلها جلاجل: بذاك الصّوب السراي والوالي والجندرمة واللي عندهم فلوس، وبهذا الصوب واقعين براسنا دق: ضرايب وعسكريّة، وفوقها خبز شعير، فلازم نحچي دفن، ولازم إذا لطمنا، نقول إنّا نلطم على الموتى، مو على الناس اللي عايشين اليوم، ولازم...»[2] (المصدر نفسه، م٢، ص٢٧).

صوّر الشّاهد «الآخر» الإنجليزيّ في دعة وراحة ورسم للقارئ تلك الظّروف المتباينة بين من يعيش في القرب من الآخر ومن هو السّاكن الرّئيس لهذه الأرض، والمقصود من القرب ليست العلاقات الوثيقة أو البسيطة بين العملاء والولاة فقط، بل أرادت الشّخصيّة الرّوائيّة أن تصوّر للقارئ بأنّ حضور الآخر في «ذاك الصّوب» أدّى إلى تطوّر تلك المنطقة رفاهيّة ومظهريًّا، أمّا بالنّسبة إلى «هذا الصّوب»، فعلى «العراقيّ» أن يتحدّث «دفنًا» أي بهدوء وحتّى حين يريد البكاء على هذا الحال عليه أن يتعذّر

(١) «ها يا أبا موعود.. ماذا تقول؟ من ينتصر ومن ينهزم.. هذا الباشا أم ذلك الباشا؟ وأنا أقول له اهدأ يا عزيزي! حافظ على هدوئك ولا تجعلنا في حالة حرجة يا أبا سندس.. لأن كلّ واحد من هؤلاء أنجس من الآخر ولايتغيّر أي شيء من هذا الوضع»

(٢) «حديثنا في بغداد وفي شقّيه طويلٌ ذو شجون: ففي الجانب الآخر (المقابل) من بغداد تجد السرّاي والوالي والضبّاط والأثرياء، وأما في هذا الجانب من بغداد (جانبنا)، فأصبحنا هدفًا للضّرائب والأعمال العسكريّة، وإضافة إلى هذا علينا أن نأكل خبز الشّعير، وعلينا أن نتحدّث همسًا وحتّى لو لطمنا، نقول أنّنا نلطم على الموتى ليس على هذا الوضع الذي نعيشه وعلينا..»

بالبكاء على الموتى لا الأحياء وإشارة الشّخصيّة إلى الأمكنة «ذاك الصّوب» و«هذا الصّوب» تحمل الكثير من الدّلالات من أهمّها هي أنّ الشخصيّة الرّوائيّة ترسم للقارئ البيئة التي عايشتها الشّخصيّات و«المكان الرّوائي ليس بقعة جغرافيّة تحمل اسم مدينة أو مقهى أو شارع وكفى، ولكنّه أيضًا مجموعة من التّفاصيل التي تجعل المكان مكانًا نوعيًّا دالًا» (الدّعمومي، ١٩٩١، ص٨٣)، ويجسّد تصوير المكانين والتّعارض الدّلالي بين المكانين طبيعةَ الفئتين والانشقاق الاجتماعي في تلك الفترة فـ «ذاك الصّوب» نعمة ورفاهيّة وأمّا «هذا الصّوب» فمأساة ودمار، ولا ينسى القارئ أنّ المقصود من الصّوبَين هي الأمكنة التي قطنها «الأنا» و«الآخر».

صورة حياة البؤس والعناء الذي واجهها «العراقيّ» من نتائج الحكم العثمانيّ التي لمّحنا إليها سابقًا هي من الرّكائز المهمة التي سلّط الضّوء عليها عبد الرّحمن منيف:

«الفقراء يا سيفو ما لهم حظّ بالدّنيا، حظّهم عند مالك الملك، عند ربّ العالمين. أمّا الواقعين بالدّهن، أمّا عزرا والكيخيا والآغا، وجماعة ذاك الصّوب، فهذول إمّا يثبرونا ويسودوا عيشتنا، أو يهديهم الله ويكفوا عنّا ياقة، وعندها يقدّر البني آدم يرجع لأهله سالم، ويعرف يبيع ويشتري، وبالليل يصيح: أوف.. ويا عين!»[1] (منيف، ٢٠١٠، م١، ص٤٢٠).

يحكي الشاهد السّابق عن مأساة الشّعب فهم لا حظّ لهم بالدّنيا بتاتًا.. وحظّهم على الله. صوّرت الشخصيّة الرّوائية جماعة الجانب الآخر من الصوب لمرّة أخرى والمقصود الولاة ومن أهمّ النّقاط التي يجب أن ينتبه إليها القارئ هي أنّ الحديث عن المكان وإظهار الفروق بين مكان «الأنا» و«الآخر» نال حظًّا واسعًا من التركيز والتحليل بواسطة الرّوائي ولا شك أنّ المكان «يعدّ سياقًا جغرافيًّا ومعماريًّا للسّلوك وإلى هذا المكان تتمّ نسبة أو ربط بعض المعاني الاجتماعيّة والشّخصيّة من خلال الاستخدام

(١) «يا سيفو..لا حظّ للفقراء في هذه الدّنيا، فهم لم يملكوا إلاّ الله ربّ العالمين، أما الأثرياء وأهل التّرف والمال كعزرا والكيخيا والآغا والجماعة الذين يعيشون في ذلك الجانب (من بغداد) فهم إمّا يهلكوننا ويسوّدوا علينا العيش، إمّا أن يهديهم الله ويدعوننا وشأننا وعندها يمكن أن « يطمئنّ الإنسان من رجوعه لأهله سالمًا ويستطيع البيع والشّراء ويصيح في الليل: أوف... ويا عين»

المتكرّر لهذه الصّفات والمعاني» (عبد الحميد، ١٩٩٥، ص٢٥٠). والحديث عن الأمكنة والتفريق بينها من قبل الرّوائي استخدم لترسيخ ظاهرة التّفرقة التي كانت تسود المجتمع آنذاك، التّفرقة التي لم تجد الشّخصيّة حلّا لها إلّا مداخلة من الله سبحانه وتعالى، فالوالي وأتباعه ليسوا إلّا عاملًا لسواد حياة الشّعب وهم لم يتنازلوا عن نواياهم إلّا أن يهديهم الله ويفكّوا النّاس وعندئذ يمكن الإنسان أن يشعر بالارتياح ويقوم بعمله.

ومن الملاحظات الأخرى أنّ «الفقراء ما لهم حظ»، «الواقعين بالدّهن»، «جماعة ذاك الصّوب»، «يفكّوا عنّا ياقة»، «أوف ويا عين» كلّها مصطلحات شعبيّة وأمثال كانت تتبادل بين النّاس في الواقع و«أسهم التّناص الشّعبي في تقديم إشكالية الأنا والآخر، ما أتاح للمتلقّي فرصة معايشة لغة تنطق بروح البيئة وما يهيمن عليها من رؤى وإكراهات، ترسم ملامح الإنسان، وما يعتريه من مخاوف وأوهام وما ينبض في قلبه من مشاعر الحب والكراهيّة» (حمّود، ٢٠١٢، ص٤٥). ومن الملامح المنقطعة النّظير في رواية أرض السّواد التي لا تخلو الشّواهد المذكورة في البحث منها بل واحتوت عديدها هي اللغة الحواريّة التي استخدمها منيف للشّخصيّات الرّوائيّة فنرى أنّ المفردات والمصطلحات ظهرت كما كانت في عهد داود باشا وتلك الفترة، ولا شكّ أنّ استخدام اللهجة العراقيّة من قِبل الشخصيّات هو تأييد لعدم خضوع العراقيّ أمام الآخر وكلّ الدّعايات التي قام بها.

٤-٢. جدليّة الصّراع النّفسي والفكري بين الأنا العراقيّ والآخر الإنجليزيّ

ظهرت صورة الآخر الإنجليزيّ جليّةً وواضحة في الرّواية. ريتش هي الشخصيّة التي مثّلت القنصل البريطانيّ في العراق. شخصيّة ريتش ومحاولاته في العراق أثارت صخبًا في الرّواية ولا شكّ أنّ التاريخ لا ينكر هذه الأحداث وصحّ عليها قبل أن يصحّ عليها هذا العمل الأدبي. ريتش وزوجته ماري شخصيّتان مهمّتان مثّلا الشخصيّة الإنجليزيّة أو «الآخر» الإنجليزيّ عند «الأنا» العراقيّ بحيث اشتمل الجزء الثّاني من ثلاثيّة «أرض السّواد» على قضايا وأحداث كثيرة تتعلّق بهاتين الشّخصيّتين، وهذه القضايا

نفسها تُساعد على معرفة ثقافة الآخر وأغراضه السّياسيّة وموقفه من الأنا العراقيّة أو العربيّة. أقام ريتش احتفالات واسعة في بغداد... احتفالات لم ير مثلَها النّاسُ ولم تكن تلك الاحتفالات إلّا لجلب الأنظار وجذب النّاس إلى القنصليّة البريطانيّة وكذلك تحبيب صورة بريطانيا عند العراقيّين. حفلة ريتش لعيد ميلاد زوجته «ماري» من الاحتفالات التي قام بها السّيد ريتش وتبدو صورة الإنجليز في هذا الموقف:

«وقبل أن تنقضي ثلاثة شهور أقيم احتفال ثان، لا يقلّ روعة وحجمًا عن احتفال الزّواج، لكن هذه المرّة لعيد ميلاد ماري، وقد استغرب الكثيرون "كيف أنّ الإنكليز لا يتذكّرون فقط السنة التي ولدوا فيها، بل ويتذكرون اليوم!"» (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٨٧).

يحكي الشّاهد عن الاختلاف بين الثّقافة العربيّة والثّقافة الغربيّة وكيف أنّ الغربيين يحتفلون بالذّكرى السّنويّة لميلادهم بل وكيف لا ينسون اليوم الذي وُلدوا فيه؟! وكأنّ الشّاهد يريد أن يقدّم لمحة عن الثّقافة الغربيّة وهي ثقافة الاحتفال بأعياد الميلاد وأنّ هذا التقليد وهذا الاحتفال لم يكن ذات محلٍ جليّ في العرف العربيّ في تلك الآونة أي أنّ ذّكرى للميلاد عند العربيّ كانت تتحدّد بالسّنة أو بالأحرى لم يكن احتفالٌ هناك لهذا الأمر عند العرب و«الثّقافة تهدي الإنسان إلى القيم وتمكّنه من التعبير عن نفسه بطريقة ما، تجعله يتعرّف على ذاته ويعيد النّظر في إنجازاته وسلوكه» (بني أحمد، ٢٠١٧، ص١٤)، ولا يخفى على القارئ أنّ التّساؤل عن كيفيّة تمسّك البريطانيّين بأيام الميلاد لم يخل من طابعٍ سخريّ واستخدم هذا الطّابع السّخريّ في مواقف كثيرة من حديث الشّخصيّات عن «الآخر»، والمراد من هذه السّخريّة الأليمة هي أنّ الأنا العراقية لم تتذكّر العام الذي ولدت فيه لشدّة المأساة التي عايشتها ولضيق الظّروف الاقتصاديّة فكيف تستطيع أن تحتفظ باليوم الذي وُلدت فيه.

«لقد استعاد النّاس هذه القصص، وأخرى غيرها، حين بدأ النّزاع بين داود وسعيد، وكانوا يريدون أن يعرفوا: "الأشيقر، ريتش، أبو البواليز، يؤيّد سعيد أو داود أم عنده واحد ضامّة تحت الإبط؟"»[1] (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٨٧).

(١) «هل يؤيّد هذا ريتش الأشيقر سعيد أم داود أم عنده واحدٌ آخر أخفاه عن النّاس؟ أي وضعه تحت إبطه»

تقصد الشخصيّات الرّوائيّة بالأشيقر، ريتش الإنجليزي، والمقصود من استخدام الاسم المصغّر لريتش أي تصغير الأشقر هو التحقير والخذلان لهذه الشخصيّة على الرّغم من أنّه لم يبلغ الكثير من العمر وكما أشارت الرّواية هو أصغر موظّفي القنصليّة بالفعل. «أبو البواليز» تسمية تُشير إلى ملامح من حياة الإنجليز أي السّيد ريتش وزوجته، حيث كانا يعيشان في رفاهيّة ودعة وفسحة من الآمال. تحمل صفة أبو البواليز دلالة ذات طابع سخري، لأنّ القارئ لو أمعن النّظر في الرّواية لرأى أنّ هناك باليوزًا واحدًا في القنصليّة أو بالأحرى لم يُشاهد في الرّواية حديثًا مفصّلًا عن كثرة البواليز، واتّخذت الشّخصيّات الرّوائيّة هذا المصطلح كي تعبّر عن انشغال السّيد ريتش بالاحتفالات والأعمال التي تكون ألصق بالمظهر الجمالي لما يدور حوله وكذلك حمل الشّاهد السّابق خبرًا مهمًّا عن الإنجليز وكيف كانوا يؤثّرون على الوضع السّياسيّ الذي كان يُصدر عن البلاط الحاكم ومن اللطيف أنّ هذا التّأثير لم يُحدّد بالتأييد أو عدم التّأييد للولاة والحكام بل يتعدّى إلى تقليدهم مقاليد الحكم ولذلك يقول الشّاهد «عنده واحد ضامّة تحت الإبط» أي أنّ الإنجليز قد عيّنوا حاكمًا آخر ولم يفصحوا عن تعيينه حتّى الآن وبإمكان القارئ أن يقرأ فقرات تُشابه الفقرة السّابقة، نظرًا لأهميّة هذا الأمر في الرّواية:

«قلبي يقول لي، يا عبد الله، بعد ما طلع لنا هذا الأشيقر ما أعرف اشلون، أنّ الدنيا مو راهمة، مو عدلة، والله أعلم أن والينا مبيّت سالفة!»[1] (المصدر نفسه، ص١٧٤).

قد بلغ تأثير الإنجليز مبلغًا هائلًا بحيث تقول إحدى الشخصيّات بأنّها لا تدري كيف يسير الوضع وكأنّ الحالة لم تكن كالسّابق وكأنّ شخصيّات الرّواية قد أحسّت بتغيير يكاد يقع و«أهميّة صورة الآخر في أدب أيّ أمّة أنّه يكشف الحقائق العميقة لهذه الأمّة في أعين أبنائها، والمكوّنات الأهمّ لهويّتها، لأنّهم يتناولون الآخر ويتحدّثون عنه بإبراز الجوانب التي يرون أنه يخالفهم فيها» (الحربي، ١٤٤١، ص١٦٤)، فالحديث

(١) «يا عبد الله، يقول لي قلبي، بعد ما خرج لنا هذا الأشيقر ريتش، لا أدري ماذا يجري؟ أشعر أنّ العالم لم يكن كالسّابق، لم يكن كما كان عليه، والله أعلم ربّما ينوي والينا خطّة لم يفصح عنها للنّاس!»

عن التغيير الذي يشعر به المجتمع دون أن يرى تغييرًا ظاهريًّا هو مستمدٌّ من أشياء كثيرة، من حديث النّاس في المقهى، السّوق، أهل الحرف، بدري الذي عمل في الجيش وسيفو الذي كان سقاءً ويرى النّاس وينقل الأخبار بينهم، ومن الشّواهد الأخرى التي بإمكانها أن تفصح عن النّظرة النفسيّة للعراقي أمام الآخر الإنجليزيّ:

«ليش الإنكليز امخلّيين أحد يلعب وحده يا معوّد؟ ماخذين الدّنيا شاطي باطي، وما فاكين ياقة.. يوم ويّا عبد الله باشا، وثاني ويّا سعيد باشا، يوم مع السّلطان ويوم مع الشّيطان، وتعالوا يا فتّاحي الفال، يا أهل السّيميا، افرزوا وفسروا: هذا مع منو؟ وهذا ضد منو؟.. وآني ويّا نفسي أو ويّا إبليس؟»[1] (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٢٥٣).

يوضّح الشّاهد السّابق مدى تدخّل الإنجليز في شؤون العراق وكأنّهم فُرضوا قهرًا على هذا الشّعب، وكأنّهم لا ينوون أن يخلّصوا النّاس من شرّهم.. وهذه الأحاديث ليست إلّا حديث معاناة شعب لا يستطيع أن يوصل صوته إلى العالم وهذه الأصوات «تحاول لفت أنظارنا إلى الأكثريّة الكبيرة المستعمرة التي لم تترك لها أثرًا في التاريخ، لأنّها لم تستطع إيصال صوتها إلى الآخرين، أو لم يُسمح لها بذلك» (برتنز، ١٣٨٢، ص٢٦٩). فالإنجليز لم يستقرّوا على حال واحدة.. يوم مع فلان سلطان ويوم مع والٍ آخر وحتّى يوم مع الشّيطان.. ولذلك تشعر الشّخصيّة أنّها وقعت في حيرة من أمرها وضاعت عليها القضيّة حتّى لا تدري ما الذي يحدث في البلد فقامت تستنجد بأهل الفال والسّيميّاء والعرّافين كي يساعدوها في فكّ هذه الألغاز. الكلام المنقول للشّاهد السّابق هو لشخصيّة شعبيّة توصّلت إلى هذه النّتائج من خلال تجربتها ونظرتها إلى المواطنين ولم تعلم بأنّ الإنجليز هم أصحاب الرّأي الغالب في تعيين الحكّام وهذا ما أقرّت به الشخصيّة البريطانيّة نفسها:

«عندما أبلغ الترجمان ريتش بالموعد، هزّ الأخير رأسه وكان يبتسم ابتسامة تحمل

(١) «أيترك الإنجليز أحدًا يلعب وحده يا رجل؟ هم تملّكوا الدّنيا ولم يفكوا النّاس.. تراهم يكنّون الودّ والإخاء لعبد الله يومًا ويوما آخر مع سعيد باشا ويومًا مع السّلطان ويومًا مع الشّيطان، وتعالوا يا العرّافين... يا أهل الفال.. فرّقوا وتحاكموا بينهم: هذا مع من؟ وهذا ضدّ من؟ وأنا مع نفسي أم مع إبليس؟»

أكثر من معنى. وقال: - نحن مثل الهواء، قد لا يرانا من يتطلّع حواليه، لكن كلّ إنسان يحسّ أنّنا موجودون وضروريّون.. ولعلّ الباشا أكثر الجميع إحساسًا بهذا الأمر!» (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص١٠١).

لم ينحصر قول ريتش بالإحساس وليس لدى الباشا فقط، بل كما أشير في الشّواهد الآنفة الذّكر، رسّخت بريطانيا سيطرتها في العراق وحتّى في أذهان النّاس وأمّا الحديث عن «إحساس الباشا بقدرة الإنجليز» فكأنّه تعريض واستهزاء بالحدث، والحقيقة الحديث الذي يدور حول ريتش هو ليس موجّهًا إلى هذه الشّخصيّة بل يقصد به الرّوائي كافّة الإنجليز والأجانب الذّين اتّخذوا العراق مادّة للسّلب والنّهب و«إنّ منيف يحوّل ريتش القنصل الإنجليزيّ في نصّ ثلاثيّة أرض السّواد إلى علامة تاريخيّة/ إنسانيّة يدين من خلالها التدخلات الخارجيّة والنّهب المنظّم لأرض السّواد، ويحاول أن يمدّ الجسور بين الماضي والحاضر» (النّعيمي، ٢٠١٠، ص١٧٧).

كثرت الشّواهد والمواقف التي تبيّن وتوضّح صورة الآخر الإنجليزيّ في الرّواية بحيث تطرّق الجزء الثّاني من الثّلاثيّة إلى الأعمال التي قام بها ريتش في العراق وهي ومن الشّواهد التي تُساعد القارئ للاطلاع على سياسة دقّ الإسفين من قبل الآخر الإنجليزيّ بين الشّعب العراقي وكذلك نشر العيون بين النّاس:

«ابن الزّفرة ميناس شافني اليوم بالميدان.. طلّع من جيبة كم بارة وقال: تخرّج ابهاذي إلى أن أشوف القنصل يمكن الله يلقي لك وظيفة تؤمّن خبزتك. دفعت إيده وكانت الفلوس بيها، فوقعت على القاع... أمّا الوظيفة اللي تقول عليها فما اشتريها بكلاش، لأنها تلوق لك ولأمثالك! وقبل ما أتركه تفلت على القاع ومشيت!»[1] (منيف، ٢٠٠٠، م٣، ص١٤٩)

لعلّ الشّخصيّات الرّوائيّة في البداية أي في الجزء الأول من الثّلاثيّة لم تصل إلى درجة

(١) «رآني ميناس ابن الخبيثة في السّاحة.. أخرج نقودًا من جيبه وقال: اصرف هذا المال حتّى أرى القنصل وأحدّثه في أمرك عسى أن يرحم الله ويهيّئ لك عملًا يؤمّن حياتك.. دفعت يده التي كانت تحمل النّقود.. فوقعت النّقود على الأرض.. أما الوظيفة التي تتحدّث عنها فلا أشتريها بأبخس الأشياء، لأنّك أنت وأمثالك يستحق مثل هذه الوظائف وقبل أن أتركه بصقت على الأرض وذهبت!»

الوعي بالنّسبة إلى الآخر إلى أن رأت وكشفت الأعمال والأهداف التي حاول أن يصل إليها الآخر والشّاهد السّابق يمثّل الشّخصيّة الشّعبية التي رفضت الخضوع للأغلال والأفخاخ التي وضعها الآخر لاستيلاب الهويّة، فالقارئ بقراءة الثّلاثيّة يشعر بالمأساة والألم والمجاعة وكلّ المصائب ومنها الإنسانيّة ولذلك خضعت بعض الضمائر الضّعيفة أمام الآخر كي تحصل على بخسٍ من المال أمّا أصحاب الضّمائر اليقظة فابتعدوا شديد البُعد عن هذه الصّفات.

٤-٣. الأنا العراقيّ بين الانبهار بالآخر الفرنسيّ وخيبة الأمل

لم تكن رواية «أرض السّواد» تنحصر بالحديث عن العثمانيّ والإنجليزيّ بل نرى أنّ هناك حضورًا للآخر الفرنسيّ وتمّ هذا الحضور للفرنسيّ قبل الإنجليزيّ وفقًا لما ذُكر في الرّواية، حيث دخل العراق وفودٌ من الفرنسيّين بحجّة البحث عن المعالم الأثريّة واكتشاف كنوز الأمكنة التاريخيّة. ومن الملاحظ أنّه لم يكن للفرنسيّ حضور كثيف كالإنجليزيّ لكن الشّواهد المذكورة في الرّواية عن فرنسا والحوارات التي تتبادل بين الشّخصيّات الرّوائيّة هي مقارنة بين آخرَين من جهة الأنا، أي تقوم الشخصيّة العراقيّة بتقييم الآخر الإنجليزيّ الذي يبحث عن شتّى الطرق السّياسيّة والثّقافيّة والدينيّة لترسيخ قواعده الاستعماريّة في وطنه والآخر الفرنسيّ الذي راح يطبّق خطّته التي لم تكن تختلف عن الأوّل بكثير في أرض أخرى وهي مصر والشّعوب العربيّة الأخرى ويعدّ هذا الأمر أي الاهتمام بالمضمون السّياسيّ والثّقافيّ من ميزات الكتابة الرّوائيّة عند عبد الرحمن منيف «ومن الأمور التي أدركها عبد الرحمن منيف حين اختار الرّواية وسيلة للوعي أنّ العمل القوميّ لا يقوم بالسّياسة وحدها، بل بالثّقافة أيضًا لأنّ بناء الذّات الثّقافيّة العصريّة في زمنٍ زاد فيه الانفتاح وضعفت الحدود وصار البقاء للأصلح» (أحمد، ٢٠١٧، ص٩) من الشّواهد المهمة التي تُشير إلى نظرة الأنا العراقيّة إلى الآخر الفرنسيّ:

«لمّا وصل نابيلون إلى مصر وصلت معه مكاين، الواحدة بكبرِ هذي القهوة أو أكبر، ووصل الكاغد، وبدل ما الواحد يكتب بالقصبة على الكاغد، المكاين تظل تدق بالليل

وبالنّهار، وكل شيء ينختم على الكاغد، وثاني يوم النّاس تصيح: «نريد بريد مصر»، ويشترون هذي المكتوب بيها كل شي»[1] (منيف، ٢٠٠٠، م١، ص٢٥٦).

كما أشارت الشخصية الرّوائيّة في الشّاهد السّابق، قامت فرنسا بتقديم الخدمات وإدخال الصّنعات في مصر بترسيخ قوّتها المستعمرة إلى درجة زادت معها مطالبات النّاس فالشعب يحاول أن يثقّف نفسه وفقًا للظّروف المتواطئة، بينما الإنجليز لم يجلبوا شيئاً ينفع النّاس بل جلبوا الدّمار والخراب والفتن بين الشّعوب والقوميّات المختلفة وأشعلوا نيران التفرقة بين النّاس. وكما يتّضح من الشّاهد استطاعت فرنسا أن تؤرّخ موقفها في ذهن الشخصيّة العربيّة والعراقيّة وصنعت لنفسها ذروة شاهقة فاقت بريطانيا وسيطرتها على الشّرق وهناك شاهد آخر يُنقل عن الشخصيّة الإنجليزيّة في ما يتعلّق بموقف فرنسا من العراقيين:

«لديهم مثل يقول: القرعة تفاخر بشعر ابنة خالتها، ولذلك يفترضون أنّه لا أحد يستطيع الوقوف في وجه إمبراطوريّتنا سوى فرنسا، فرنسا التي على رأسها نابيلون، وهذا ما يفسّر حرصهم على معرفة أخباره» (المصدر السّابق، ص٤٠٠).

كما يتّضح في الشّاهد، كان الشّعب العراقيّ لا يولي اهتمامًا خاصًّا بسيطرة بريطانيا لأنّه كان منبهرًا بفرنسا وإنجازاتها ولذلك فإنّ استخدام المثل السّابق هو دلالة على أنّ بريطانيا نفسها خاضعة لفرنسا وأنّ فضل الإنجليز ليس إلّا عطاءً من الفرنسيّين ويمكن القول إنّ رؤية الشّعب العراقيّ لنابيليون هي رؤية انبهاريّة فكان الشّعب العراقي قد انبهر لسمعة نابيليون والفرنسيين ووصل هذا الانبهار إلى تطبيق الأمثال على الآخر الفرنسيّ والإنجليزيّ والاستهزاء بالإنجليز، وفضلًا عن المَثل «القرعة تفاخر بشعر ابنة خالتها» هناك مثلٌ آخر استُخدم في الرّواية كي يوضّح رؤية العراقيين الانبهاريّة أمام فرنسا:

(١) «حينما وصل نابليون إلى مصر حمل معه مكاين كلّ مكينة تعادل هذا المقهى مساحة وربمّا أكبر، ووصلت معه الأوراق وبدلًا من أن يكتب أحد بالقصبة على الورقة بدأت تعمل المكاين ليل نهار وانكتب كلّ شيء على الأوراق حتّى تصاعد صوت النّاس وقالوا: نريد بريدًا في مصر وبدأو بشراء هذه التي كتب عليها كلّ شيء (لعلّه يقصد الجرائد والمجلّات).

«إذا غاب البزّون إلعب يا فار» ولقد جاء هذا المثل على لسان المسافرين العائدين من البصرة، ولقد استعمل بغرض الاستهزاء والتّلاعب والسّخريّة من الإنجليز، فبعد غياب نابليون واهتزاز علم الإمبراطوريّة الفرنسيّة، استغلّ الإنجليز الفرصة، ولم تعد الأرض تسعهم وهذا المثل الشّعبيّ يختزل الفراغ السياسيّ والعسكريّ الذي تعرفه المنطقة. والحقيقة إنّ بإمكان دراسات الآخر أن توصل الكثير من المعلومات إلى القارئ، فمن خلال دراسة «صورة فرنسا» في الرّواية يصل القارئ إلى تلك الأرسطقراطيّة التي صنعتها فرنسا لنفسها وكيف أنّ الشّعب العراقيّ أدرك هذا التطوّر الذي حملته فرنسا إلى الكثير من الشّعوب العربيّة ولنقل إنّ الشخصيّة العراقيّة لم تكن غافلة عن الاستعمار الفرنسي وسيطرة فرنسا لكنّ تفضيل فرنسا على بريطانيا هو إشارة إلى أنّ بريطانيا لم تعط الشّعوب بدلًا من الأخذ والاستيلاب وهذه المشكلة التي تجلّت في الكثير من الشّعوب والدّول ولعلّ الشّواهد التي ذُكرت حول فرنسا كآخرٍ تُعدّ من حالات «التّشويه الإيجابيّ» لفهم وقراءة صورة الآخر «حيث تسيطر على الأنا المبدعة أو الدّارسة مشاعر الدّونيّة، فتتمّ من خلالها رؤية الواقع الثّقافي الأجنبيّ في حالة من التفوّق المطلق على الثّقافة الوطنيّة الأصليّة» (حمّود، ٢٠١٠، ص٢٧). فحين لاقت الشّخصيّة العراقية تطوّر الآخر الفرنسيّ والأعمال التي قام بها في الدّول المستعمرة، انبهرت بهذه التغييرات وهناك ملاحظة لطيفة حول موقف الآخر الفرنسيّ والأنا العراقيّة وهي أنّ الأنا هنا لم تكن وطنيّة فقط بل تعدّت ذلك وأصبحت ذات دلالة أوسع وشملت العرب حيث يطوف الحديث حتّى حول أهل مصر وطلباتهم من الآخر المحتل.

في مقطع آخر من الرّواية بعد أن يشاهد المسافرون العائدون من البصرة السّفن الإنجليزيّة يفصحون عن رأيهم حول فرنسا: «لو كان الإمبراطور نابليون حرًّا طليقًا كما كان من قبل لاستطاع أن ينغّص على الإنجليز حياتهم، لكن بعد أن هزم لم يعد أحد قادرًا على الوقوف في وجه الإنجليز» (منيف، ٢٠١٠، م١، ص٢٤٩). وهذا الشّاهد بإمكانه أن يصوّر مدى تعلّق الشخصيّة العراقيّة وتأثّرها بالآخر الفرنسيّ بحيث أدركت

تمامًا أنّ قوّة الفرنسيّين لا تضارعها قوّة أخرى وأنّ الإنجليز هي القوّة الثّانية التي ظهرت تلو سقوط فرنسا.

توضحُ الرّواية الصّراع الذي ظهر بين الإنجليز والفرنسيّين في العراق وهذا الصّراع جاء على إثر منافسة كلّ من الطّرفين بالنسبة إلى استيلاب كنوز هذه الأرض:

«يمكن اعتبار نابليون جزءًا من التاريخ القديم، الجزء الذي انتهى.. لقد أزعج هذا النابليون أوروبا والعالم كله، ولو تُرك وشأنه لما وجد العالم راحة أو سلامًا لذلك كان تأديبه ضروريًّا، وهذا ما تولّته الإمبراطوريّة البريطانيّة العظمى وانتهى الأمر» (المصدر نفسه، ص٢٥٠)

تعدّ شخصيّة نابليون من الشّخصيّات التّاريخيّة التي وضّحتها الرّواية وتحدّثت الشّخصيّة العراقيّة والبريطانيّة عن قدرة نابليون والأحداث التي قام بها والشّاهد السّابق هو حديث ريتش الإنجليزيّ عن نابليون ولعلّ انبهار الشّعب العراقيّ بفرنسا ونابليون من الدّوافع الرّئيسيّة لقول هذا الحديث من قبل ريتش «فقد كانت صورته التي تمثّلت في أعماله، بمخيّلة النّاس جميعًا، وحلمهم بثورة مشابهة لثورة فرنسا، ولكنّها تراجعت بعد هزائم نابليون، فهم فقدوا الأمل في ذلك، على الرّغم من أنّ اسمه ظلّ يتردّد حول العالم منذ ذلك العصر وحتّى الآن» (يُنظر: جرجر، ٢٠١٥، ص٣٤٠).

ظهرت صورة فرنسا محبّبةً عند العرب والشّعب العراقيّ إلّا أنّ الصّراع الذي دار بين الإنجليز وفرنسا على المعالم الأثريّة زاد من غيظ ريتش وظهر هذا الصّراع جليّا في الرّواية، فيواجه الآخر تصارع الآخرَين على كنوز هذه الأرض وبهذا تتجلّى عمليّة السلب والنّهب بشكل أوضح لدى القارئ فوجد ريتش: «أنّ الفرنسيّين سبقوه إلى الشّمال وإنّهم استعانوا ببعض رجال الدّين المسيحيّين لمساعدتهم في البحث والتنقيب عن الآثار وشعر أنه خدع وتأخّر كثيرًا»، «فالإنجليز جاءوا يحملون معهم العهد القديم وكانوا يبحثون اعتمادًا على ذلك الكتاب.. أمّا الفرنسيّون الخبثاء، مثلما يقول ريتش لنفسه بغيظ، فقد اعتمدوا على دين معاصر وعلى رجال دين أحياء»

(منيف، ٢٠١٠، م٢، ص٥٢-٥٣). بناءً على الشّواهد وكما أشار الباحث في تحليل الشّواهد المسبوقة، لم يكن هناك اعتراض من قبل الشّخصيّة العراقيّة بالنّسبة إلى فرنسا أو نابليون والأعمال التي قاموا بها في البلاد العربيّة والمستعمرة ومع أنّ قارئ التّاريخ لا يُنكر الصّناعات والتطوّرات التي حملتها فرنسا إلى الشّعوب، لكن يبدو أنّ انبهار الشّعب العراقيّ بفرنسا أتى إثر سياسات التّطبيع والتطميع من قبل الآخر الفرنسيّ وأنّ العراقيّ لا يخوض تجربة مباشرة مع الآخر الفرنسيّ كي يدرك مظاهر الظّلم والبؤس.

٦. النّتائج

من النّقاط التي يمكن الإشارة إليها هي أنّ الرّوائي لم ينحصر بالنّظرة السّياسيّة ونقد الموقف السّياسي للآخر سواء العثمانيّ أم الإنجليزيّ أم الفرنسيّ، فالرّوائي سلّط الضّوء على الجوانب الثّقافيّة منها ظاهرة الاحتفالات في الثّقافة الغربيّة والعادات والتّقاليد الخاصّة بالباليوز الإنجليزي. تسليط الضّوء على البُعد الاجتماعيّ للآخر ودوره في المجتمع من الميزات الرّئيسة التي لا تنفكّ عن نقد الموقف السّياسيّ للآخر في العراق، فسياسة دسّ العيون ودقّ الإسفين في المجتمع وكذلك استغلال أفكار الشّعب العراقيّ من أهمّ الصّفات التي تظهر بوضوح إثر دراسة الآخر في ثلاثيّة عبد الرّحمن منيف. أمّا فيما يتعلّق بالجانب الثّقافيّ فيواجه الكاتب طرق وأنماط تزيين الاستعمار والاستيلاب عند الآخر الفرنسيّ وتطبيع الشّعب العراقيّ على الفقر والمأساة إثر إقناعه بالأقلّ من الإمكانيّات.

يمكن أن توضع صورة الآخر العثمانيّ والآخر الإنجليزيّ في موضع واحدٍ من السّلبيّة والموقف الذي استاء منه المجتمع العراقيّ، فحديث الشّخصيّات عن الآخر العثماني مليء بالصّور المشوّهة التي كانت قد حدثت في الواقع ولها أصولٌ تاريخيّة ويشعر القارئ بأنّ الشّخصيّات الرّوائيّة وضعت حاجزًا بين الآخر العثمانيّ وبين الآخرَين، فالآخر الإنجليزيّ يبدو أكثر غرابة من العثمانيّ والفرنسيّ فهو تخلّق بخصال وطوابع يصعب

فهمها على الأنا العراقيّة وأصبحت أعماله بمثابة الألغاز التي وضعت الشّخصيّات وخاصّة الشّعبيّة منها في بؤر التّحليل والتمحيص وهذا ما يُشاهد في الرّواية والشّواهد المذكورة بشكلٍ واضح بحيث ظهرت الشخصيّات الإنجليزيّة وخاصّة القادة منها تستغل كافّة الأساليب والطرق لتنال أهدافها السّياسيّة أمّا الآخر الفرنسيّ فظهرت صورته شاهقة عالية، وتوصّلت الشّخصيّة العراقيّة إلى أنّه أفضل بكثير من الإنجليزيّ والعثمانيّ حتّى تمنّت الشخصيّة العراقيّة أن يكون الفرنسيّ بدلًا من الإنجليزيّ في هذه الأرض ونظرت الشّخصيّات العراقيّة إلى الآخر الفرنسيّ بنظرة الانبهار.

يمكن أن نستخلص نقاط التشابه في تطرّق الرّوائي إلى الآخر في الحديث عن الجوانب الثّقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة المتعلّقة بالإنجليزيّ والعثمانيّ وإلى حدٍ ما الفرنسيّ، وكذلك يمكن القول بأنّ الحديث عن الآخر الإنجليزيّ والعثمانيّ والانتباه إلى مظاهر الاستعمار والاستيلاب بواسطة الشخصيّة العراقيّة جاء إثر تعايش الأنا العراقيّة أي الشّخصيّات مع مظاهر هذا الاستعمار والاستيلاب، لكنّ قبول الفرنسيّ والحديث عن الفرنسيّ ظهر إثر السماع عنه فقط، وعدم خوض تجربة التعايش مع الآخر الفرنسيّ ورؤيته من قريب والحصول على تجربة استعماره والآثار الناتجة عنه وهذا الأمر هو السّبب في رجحان الفرنسيّ على الآخرَين من قبل الشّخصيّة العراقيّة.

توضّح هذه القراءة لرواية أرض السّواد بأنّ أفضل الدراسات للأنا والآخر هي التي تكون في صدد التعبير عن الحقائق بعيدًا عن التطرّف. فحاول عبد الرحمن منيف أن يوصّل هذه الأمانة دون أي حيادٍ، ولا شكّ أنّ التعرف على تاريخ العراق لحقبةٍ من الزّمن لم تكن بعيدة بكثير يُمكن أن يساعد على إعادة النّظر في الموقف السياسيّ الحاضر في العراق، وهذه مهمّة قلّما يطيل النّظر فيها الأدباء يعني أنّ هذه الثّلاثيّة قد تكون بمثابة وثيقة تنقل تجربة تاريخية سياسيّة عن جذور وأصول العلاقات بين العراق وشعوب أخرى كبريطانيا والعثمانّيين وهي تصوير حيٌّ لتلك الظّروف والحالات التي ظهرت إثر هذه العلاقات وأثّرت على المجتمع والثّقافة آنذاك.

المصادر والمراجع

١. ابن سينا (٢٠١٧)، **رسالة في معرفة النّفس النّاطقة وأحوالها**، مؤسّسة هنداوي سي آي سي.

٢. ابن منظور (١١١٩)، **لسان العرب**، القاهرة: دار المعارف.

٣. برتنز، يوهانس ويليم (١٣٨٢)، **نظريه ادبي**، مترجم: فرزان سجودى، تهران: نشر دار آهنگ ديگر، الطّبعة الأولى.

٤. بزون قاسم، محمّد (٢٠٢١)، «تأثّر غوتة الألماني بحافظ الشيرازي الفارسي "التماثل بين غوته وحافظ"»، مجلة الدراسات الأدبية في اللغة العربيّة والفارسيّة وتفاعلهما، مج ٥١، العدد ١٠٢، صص ١٠٩-٧٧.

٥. بني أحمد، عامر علي سالم (٢٠١٧)، **ثنائيّة الأرض والانسان في روايات عبد الرّحمن منيف**، رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها، جامعة جرش، أردن.

٦. جرجر، زينب الحراري عبد النّبي (٢٠١٥)، **الرواية التاريخيّة/ روايتا أرض السّواد لعبد الرحمن منيف والولي الأخير لخليفة حسين مصطفى نموذجًا، دراسة تحليليّة موازنة**، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدّكتوراه في الدراسات الأدبيّة، جامعة طرابلس، ليبيا.

٧. الحربي، صالح بن عويّد (١٤٤١)، «دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر إدوارد سعيد دراسة مقارنة»، **مجلّة جامعة طيبة**، للآداب والعلوم الانسانيّة، السّنة السّابعة، العدد ٢٠، ١٥٣-١٩٩.

٨. حمود، ماجدة (٢٠١٠)، **صورة الآخر في التراث العربي**، منشورات الخلاف، الطّبعة الأولى.

٩. ..... (٢٠١٢)، «إشكاليّة الهويّة بين الأنا والآخر؛ في رواية «أرض السّواد» لعبد الرحمن منيف»، **مجلّة الموقف الأدبي**، العدد ٤٩٧، صفحات ٢٩-٤٦.

١٠. الدّعمومي، محمّد (١٩٩١)، **الرّواية المغربيّة والتغيّر الاجتماعي**، الناشر

الشركة العالميّة للكتب، الطّبعة الأولى.

١١. صالح، أسماء يوسف ديّان (٢٠١٤)، «**الصّورولوجيا في الرّواية: دراسة مقارنة بين روايات عربيّة وأميركيّة مختارة**»، رسالة لنيل درجة الماجستير، جامعة ذي قار، العراق.

١٢. عباسعلي نژاد، مريم وپرويني، خليل ونظري منظّم، هادي ومير قادري، فضل الله (٢٠١٩)، «جدليّة الأنا والآخر في أشعار عز الدين مناصرة المقاومة»، **مجلّة الأدب العربي**، السّنة ١١، العدد الأوّل، صفحات ١-٢٢.

١٣. عبد الحميد، شاكر (١٩٩٥)، «الوعي بالمكان ودلالته»، **مجلّة الفصول**، المجلّد ١٣، العدد ٤، ٢٤٩-٢٦٣.

١٤. عبد الحميد، جابر وكفّافي، علاء الدّين (١٩٩٠)، **معجم علم النّفس والطّب النّفسي**، المجلّد ٣، دار النّهضة العربيّة، القاهرة.

١٥. علّوش، سعيد (١٩٨٥)، **معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني وسوشبريس، الطّبعة الأولى.

١٦. المحادين، عندنان محمّد علي (٢٠٠٦)، **تيّار الوعي في روايات عبد الرّحمن منيف**، رسالة لنيل درجة الدّكتوراه في قسم اللغة العربيّة وآدابها، جامعة مؤتة.

١٧. منيف، عبد الرّحمن (٢٠٠٠)، **أرض السّواد**، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، الطّبعة الثّانية.

١٨. موريسون، طوني (٢٠٠٩)، **صورة الآخر في الخيال الأدبي**، ترجمة محمّد مشبال، منشورات البحث النّقدي ونظريّة الترجمة، الطّبعة الأولى.

١٩. المهداوي، صفاء عبد الفتّاح محمّد (٢٠١٠)، **الأنا في شعر محمود درويش، دراسة فنّية سوسيوثقافيّة في دواوينه من (١٩٩٥-٢٠٠٨)**، رسالة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، جامعة اليرموك، أردن.

٢٠. نانكت، لاتيشيا (١٣٨٩)، «تصوير شناسى به منزله خوانش متون نثر معاصر فرانسه و فارسى»، ترجمه مژده دقيقى، **مجله ادبيات تطبيقى (ويژه نامه**

فرهنگستان)، دوره دوم، شماره اوّل، ۱۰۰- ۱۱۵.

۲۱. النّعيمي، فيصل غازي (۲۰۰۹)، **العلامة والرّواية، دراسة سيميائيّة في رواية أرض السّواد لعبد الرحمن منيف**، أردن، عمّان؛ دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع.

۲۲. الهادي، خديجة (۲۰۱۷)، «**تقنيات الكتابة الرّوائيّة عند عبد الرحمن منيف، ثلاثيّة أرض السّواد أنموذجًا**»، رسالة لنيل درجة الماجستير، جمهوريّة الجزائر، جامعة محمّد بو ضياف.

۲۳. ياسين، مي عودة أحمد (۲۰۰٦)، «**الآخر في الشّعر الجاهلي**»، رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربيّة، جامعة النّجاح الوطنيّة، فلسطين.